

الموقف من الدين

ترجمة سعيد العلمي

موقف حزب العمال من الدين / ف . ا . لينين

اثر خطاب النائب سيركوف في الدوما اثناء الجدل حول ميزانية السينود (مجلس القساوسة) ، والمناقشة التي احتدمت داخل مجموعتنا الحزبية في الدوما حينما اعتمدت مسودة هذا الخطاب (كليهما طبع في هذا العدد) أثارا مسألة ذات اهمية قصوى والحاحية في هذه اللحظة بالذات . فهناك اهتمام بكل شئ يتصل بالدين يظهر اليوم بلا شك من قبل دوائر واسعة في "المجتمع" ، وقد تسلل هذا الاهتمام الى صفوف المثقفين القريبين من حركة الطبقة العاملة ، وكذلك الى دوائر معينة من العمال . وانه لمن واجب الاشتراكيين الديموقراطيين المطلق ان يصدروا بيانا عاما بموقفهم من الدين .

تؤسس الاشتراكية الديموقراطية كامل نظرتها للعالم على الاشتراكية العلمية ، اي، الماركسية . والاساس الفلسفي للماركسية ، كما اعلن ماركس وانجلز مرارا ، هو المادية الجدلية ، التي تبنت تماما التقليد التاريخي لمادية القرن الثامن عشر في فرنسا وكذلك تراث فورباخ (النصف الاول في القرن التاسع عشر) في المانيا – مادية الحادية تماما ومعادية بشكل ايجابي لكل الاديان . دعونا نتذكر ان كامل كتاب انجلز "ضد دوهرنج" ، الذي قرأ ماركس مسودته ، هو اتهام للمادي والملحد دوهرنج لأنه لم يكن ماديا متماسكا ولتركه ثغرات يتسلل منها الدين والفلسفة الدينية. دعونا نتذكر انه في مقاله عن لودفيج فويرباخ ، يأخذ انجلز على فويرباخ انه لا يكافح الدين حتى يقضي عليه ، وانما يعمل من اجل تجديده ، بل وأن يخترع ديناً جديداً "سامياً" ، وما الى ذلك . الدين هو افيون الشعب – هذا القول المأثور لماركس هو حجر الزاوية في كل النظرة الماركسية للدين .⁽¹⁾ لقد اعتبرت

الماركسية دائما كل الديانات والكنائس الحديثة ، وكل وأي منظمة دينية ، ادوات الرجعية البورجوازية التي تخدم في الدفاع عن الاستغلال وتخيل الطبقة العاملة .

ولطالما ادان انجلز في نفس الوقت جهود الناس الذين رغبوا في ان يكونوا "اكثر يسارا" او "اكثر ثورية" من الاشتراكيين الديموقراطيين فأوا ضرورة ان يتضمن برنامج حزب العمال اعلانا واضحا للالحاد ، بمعنى اعلان الحرب على الدين . وقد علق انجلز في ١٨٧٤ على البيان الشهير للاجئي الكومونة البلانكيين الذين كانوا يعيشون في المنفى في لندن واصفا اعلانهم الصاخب للحرب على الدين بأنه تحفة من الغباوة ، وصرح بأن اعلان الحرب هذا كان افضل طريقة لحياء الاهتمام بالدين ومنعه من ان يضمحل ويتلاشى . لقد لام انجلز البلانكيين لأنهم لم يستطيعوا ان يفهموا ان الصراع الطبقي للجماهير العاملة وحده هو الذى بمقدوره من خلال جذبه الشامل لأعرض شرائح البروليتاريا الى الممارسة الاجتماعية الثورية الواعية، ان يحرر فعليا الجماهير المضطهدة من نير الدين ، بينما كان اعلان تلك الحرب على الدين كمهمة سياسية لحزب العمال هو بالضبط متاجرة بجملة فوضوية.^(٢) وفي ١٨٧٧ ، ايضا ، في كتابه ضد دوهرنج ، بينما هاجم بقسوة ادنى تنازل قدمه دوهرينج الفيلسوف للمثالية والدين ، فقد ادان انجلز بشكل لا يقل حزما فكرة دوهرنج الثورية الزائفة حول لزوم حظر الدين في المجتمع الاشتراكي . يقول انجلز ان اعلان الحرب على الدين هو "اعادة انتاج بسمارك" ، اي ، تكرار حماقة صراع بسمارك ضد الاكليريكيين ("الكفاح الثقافي الشهير "kulturkampf" ، اي الصراع الذى شنه بسمارك في سنوات ١٨٧٠ ضد الحزب الكاثوليكي الالمانى ، حزب "الوسط" ، بوسائل الاضطهاد البوليسي للكاثوليكية) وقد حفز بسمارك واثار الاكليريكية المناضلة عند الكاثوليك ، وأضر عمل الثقافة الحقيقية فحسب ، لأنه ابرز الانقسامات الدينية لا التقسيمات السياسية ، وحول انتباه بعض قطاعات الطبقة العاملة وبعض العناصر الديموقراطية الاخرى عن المهام الملحة للصراع الطبقي والثوري ووجهها نحو اشد اشكال مناهضة الاكليريكية اصطناعا وزيفا . متهما المدعي الثوري المتطرف دوهرنج بأنه يريد ان يكرر حماقة بسمارك في شكل

آخر، اصر انجلز على انه لا بد من ان يكون لحزب العمال القدرة على العمل بصبر في مهمة تنظيم وتعليم البروليتاريا ، الذى سوف يؤدى لاضمحلال وتلاشى الدين ، والا يرمى بنفسه في مقامرة حرب سياسية على الدين.^(٣) باتت وجهة النظر هذه جزءا من صميم جوهر الاشتراكية الديمقراطية ، التي دافعت على سبيل المثال عن حرية الجزويت ، ودخولهم الى المانيا ، والتخلي التام عن الطرائق البوليسية لمكافحة اي دين بعينه . "الدين شأن خاص" : هذه النقطة الشهيرة في برنامج ايرفورت (١٨٩١) لخصت هذه التاكتيكات السياسية للاشتراكية الديمقراطية .

وقد اصبحت هذه التاكتيكات الآن امرا اعتياديا ، وتسببت في ظهور تشويه جديد للماركسية في الاتجاه العكسي ، في اتجاه الانتهازية . لقد انتهت هذه النقطة في برنامج ايرفورت الى ان تفسر بوصفها تعنى اننا نحن الاشتراكيين الديمقراطيين ، وحزبنا ، نعتبر الدين شأننا خاصا ، وان الدين شأن خاص بالنسبة لنا كاشتراكيين ديمقراطيين ، وبالنسبة لنا كحزب . وبدون الدخول في جدال مباشر مع وجهة النظر الانتهازية هذه ، فقد اعتبر انجلز في التسعينات انه من الضروري معارضتها بحزم بشكل ايجابي وليس بشكل جدالي . وللعلم : فعل انجلز هذا في شكل بيان ، وقد شدد متعمدا على ان الاشتراكيين الديمقراطيين يعتبرون الدين شأننا خاصا في علاقته بالدولة ، لا شأننا خاصا بالنسبة لنا ، ولا في علاقته بالماركسية ، ولا في علاقته بحزب العمال .^(٤)

هذا هو التاريخ الخارجى لمقولات ماركس وانجلز حول مسألة الدين . وبالنسبة لمن يتخذون موقفا متهورا ازاء الماركسية ، ومن لا يستطيعون او لا ينوون ان يفكروا ، فإن هذا التاريخ جملة خيوط من التناقضات والتأرجحات الماركسية التي لا معنى لها ، مزيج من الالحاد "التماسك" و "استرضاءات" للدين ، تذبذب غير مبدئى بين حرب ث - ث ثورية على الإلاه ورغبة جبانة في تملق العمال المتدينين، خشية من اخافتهم وتنفيرهم ، الخ الخ . يحتوى الادب الفوضوي لتجار الكلمات على زخم من الهجمات على الماركسية في هذا الاتجاه .

ولكن اي شخص قادر على التعامل مع الماركسية بجدية في كل الاحوال ، وعلى التأمل في مبادئها الفلسفية وخبرة الاشتراكية الديمقراطية الاممية سرعان ما سيرى بالفعل ان التكتيكات الماركسية ازاء الدين متماسكة تماما ، ومدروسة بعناية من قبل ماركس وانجلز ، وأن ما يعتبره الهواة والجهلة تذبذبا ليس سوي استنباط مباشر وحتمي من المادية الجدلية . سوف يكون من الخطأ العميق الظن ان ما يبدو من "اعتدال" الماركسية ازاء الدين ناجم عن اعتبارات "تاكتيكية" مفترضة ، وعن الرغبة في "عدم اخافة " اي احد وما الى ذلك . وعلى النقيض ، ففي هذه المسألة ايضا ، فإن الخط السياسي للماركسية يرتبط بشكل لا انفصام فيه عن مبادئها الفلسفية .

الماركسية هي المادية . وبوصفها كذلك ، فهي معادية للدين بلا رحمة مثلها مثل مادية موسوعيي القرن الثامن عشر او مادية فورباخ . هذا امر لاشك فيه . ولكن مادية ماركس وانجلز الجدلية تمضي ابعد من الموسوعيين وفورباخ ، لأنها تطبق الفلسفة المادية على المجال التاريخي ، وعلى مجال العلوم الاجتماعية . يجب ان نكافح الدين – هذا هو الف باء كل مادية ، وبالتالي كل ماركسية . ولكن الماركسية ليست مادية تقف عند الألف باء وانما تمضي ابعد من ذلك . وهي تقول : لا بد ان نعرف كيف نكافح الدين وحتى نفعل ذلك لا بد ان نفسر مصدر الايمان والدين بين الجماهير بطريقة مادية . ولا يمكن لمكافحة الدين ان تقتصر على التبشير الايديولوجي المجرد ، ولا يجب ان تختزل الى تبشير كهذا . فهي يجب ان ترتبط بالممارسة العينية لحركة الطبقة ، التي تهدف للقضاء على الجذور الاجتماعية للدين. لم يحتفظ الدين بمواقعه وسط الاقسام المتخلفة من بروليتاريا المدينة ، ووسط اقسام عريضة من شبه البروليتاريا ووسط جموع الفلاحين ؟ يجيب التقدمي البورجوازي : بسبب جهل الشعب ، اما الراديكالي او المادي البورجوازي ومن ماتلهم فيجيب : "يسقط الدين وعاش الالحاد ، ان نشر النظرات الالحادية هو مهمتنا الاساسية !" اما الماركسي فيقول ان هذا غير حقيقي ، وأنها وجهة نظر زائفة ، وجهة نظر البورجوازيين النهضويين ضيقي الافق . وهي لا تفسر جذور الدين

بعمق كاف ، كما انها تفسرها ليس بطريقة مادية وانما بطريقة مثالية . وهذه الجذور اجتماعية بصفة اساسية في البلدان الرأسمالية الحديثة . ان اعمق جذور الدين اليوم تتمثل في الوضع الاجتماعي المتردي للجماهير العاملة وعجزها التام الظاهر عن مواجهة القوى العمياء للرأسمالية ، التي تبتلى كل يوم وكل ساعة الشعب العامل العادي بأفزع معاناة واشد العذابات وحشية ، اقسى الف مرة من تلك التي يبتلون بها بسبب الحوادث الاستثنائية ، مثل الحروب والزلازل ، الخ . "الخوف صنع الآلهة" . الخوف من القوة العمياء لرأس المال – عمياء لانه لا يمكن توقعها من جماهير الشعب – قوة تهدد في كل خطوة في حياة البروليتاري والمالك الصغير بأن تصيبه ، وهى تصيبه بالفعل بخراب ، ودمار ، واملاق ، ودعارة ، وموت بسبب المجاعة "مفاجئ" ، "غير متوقع" ، و"طارئ" – هذه هي جذور الدين الحديث التي يجب ان يعتبرها المادي اولا وقبل كل شئ ، اذا لم يكن يريد ان يبقى طفلا ماديا مدرسيا . لا يمكن لكتاب تعليمي ان يستأصل الدين من عقول الجماهير التي سحقتها الرأسمالية بالعمل الشاق ، والتي تخضع لرحمة قوى الرأسمالية العمياء المدمرة ، الى ان تتعلم تلك الجماهير بنفسها ان تقا تل جذر الدين هذا ، وان تحارب حكم رأس المال في كل اشكاله ، بطريقة واعية ، متحدة ومنظمة ومخططة .

هل يعنى هذا ان الكتب التعليمية المعادية للدين ضارة او غير ضرورية ؟ لا ، لا شئ من هذا القبيل . ذلك يعنى ان الدعاية الاحادية التي تقوم بها الاشتراكية الديمقراطية يجب ان تخضع لمهمتها الاساسية – وهى تطوير الوعى الطبقي للجماهير المستغلة ضد المستغلين .

قد لا تفهم تلك المسألة (او على الاقل قد لاتفهم مباشرة) من قبل ممن لم يتأمل في مبادئ المادية الجدلية ، اي ، فلسفة ماركس وانجلز . قد يقال -- كيف ذلك ؟ هل الدعاية الايديولوجية ، الدعوة لأفكار معينة ، الصراع ضد عدو الثقافة والتقدم الذى ألح لألاف الأعوام (اي ، الدين) يجب اخضاعه للصراع الطبقي ، اي ، الصراع من اجل اهداف عملية معينة في المجالين الاقتصادي والسياسي ؟

هذا هو احد الاعتراضات المتداولة على الماركسية الذى يشهد على سوء فهم كامل للجدل الماركسي . ان التناقض الذى يربك هؤلاء المعترضين هو تناقض حقيقي في الحياة الفعلية ، وليس تناقضا لفظيا او مخترعا . ان ترسم خطا صارما ملزما لا يمكن انتهاكه بين الدعاية النظرية للالحاد ، اي ، تدمير العقائد الدينية وسط اقسام معينة من البروليتاريا ، والنجاح ، والتقدم وشروط الصراع الطبقي لهذه الاقسام ، معناه انك تعطل بشكل غير جدلي ، لأنك تحول حدا متغيرا ونسبيا الى حد مطلق ، وهو فصل بالقوة لما هو مرتبط ولا يمكن فصله في الحياة الواقعية . دعنا نأخذ مثالا . ان البروليتاريا في قطر معين وفي صناعة معينة منقسمة ، ودعنا نفترض ، انه في قسم متقدم اشتراكيين ديموقراطيين واعين طبقيًا لحد معقول ، وهم بالطبع ملحدون ، وهناك بالاحرى عمال متخلفون مازالوا مرتبطين بالريف وبالفلاحين ، الذين يؤمنون بالله ، ويذهبون الى الكنيسة ، او ربما واقعين تحت التأثير المباشر للكهنة المحلي – الذى ، دعنا نفترض ذلك ، ينظم اتحادا عماليا مسيحيا . دعنا نفترض اضافة لذلك ان الصراع الاقتصادي في تلك الناحية قد ادى لحدوث اضراب . ان من واجب الماركسي ان يضع نجاح الحركة الاضرابية في المحل الاول وفوق اي شئ آخر ، وأن يعارض بقوة تقسيم العمال في هذا الصراع الى ملحدين ومسيحيين ، ان يعارض بقوة اي تقسيم مشابه . قد تكون الدعاية الالحادية في مثل هذه الظروف غير ضرورية وضارة في آن معا – ليس بسبب الخوف المبتذل من تنفير الاقسام المتخلفة ، من فقد مقعد في الانتخابات ، وما الى ذلك ، ولكن صدورا عن اعتبار للتقدم الفعلي للصراع الطبقي ، الذى سيحول في شروط المجتمع الرأسمالي الحديث العمال المسيحيين الى الاشتراكية الديموقراطية والالحاد افضل بمئات المرات من الدعاية الالحادية المكشوفة . ان التبشير بالالحاد في تلك اللحظة وفي مثل هذه الظروف سوف يكون لعبا بين ايدي الكاهن والكهنة ، الذين لا يرغبون في شئ افضل من ان يستبدل تقسيم العمال وفقا لاسهامهم في الحركة الاضرابية بتقسيمهم وفق اعتقادهم في الله . ان الفوضوي الذى يبشر بالحرب ضد الرب بأي ثمن سوف يساعد الكهنة والبورجوازية نتيجة لذلك (حيث

يساعد الفوضويون دائما البورجوازية بالفعل في الممارسة) . على الماركسي ان يكون ماديا ، اي ، عدوا للدين ، وماديا جدليا ، اي ، من يعالج الصراع ضد الدين لا بطريقة مجردة ، ولا على اساس تبشير منعزل ، نظريا بشكل محض ، لا يتغير ابدا ، ولكن بطريقة عينية ، على اساس الصراع الطبقي ، الذى يدور في الممارسة والذى يعلم الجماهير اكثر وافضل من اي شئ آخر . يجب ان يكون الماركسي قادرا على ان ينظر للوضع العيني ككل ، يجب ان يكون قادرا على ايجاد الحد بين الفوضوية والانتهازية (وهذا الحد نسبي ، متحول ومتغير ، لكنه موجود) . وهو لا ينبغي ان يخضع ل "الثورية" المجردة ، اللفظية ، الخاوية في الواقع التي يعلنها الفوضوي ، او لا بتذال وانتهازية البورجوازي الصغير او المثقف الليبرالي الذى يتردد عند النضال ضد الدين ، وينسى ان هذا واجبه ، فيتلائم مع الاعتقاد في الله ، ولا يستهدي بمصالح الصراع الطبقي وانما بالاعتبار الوضع والتافه بعدم اغصاب احد ، وعدم تفجير احد ، وعدم اخافة احد – متبعا للقاعدة الحكيمة : "عش ودع الآخرين يعيشون" ، الخ ، الخ .

ومن هذا المنظور ينبغي تناول كل الموضوعات الجانبية التي ترتبط بموقف الاشتراكيين الديموقراطيين من الدين . وعلى سبيل المثال ، غالبا ما يطرح تساؤل حول ما اذا كان يمكن لكاهن ان يكون عضوا في حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي ام لا ، وعادة يجاب على هذا السؤال بصيغة ايجابية مطلقة ، ويدل على ذلك بخبرة الاحزاب الاشتراكية الديموقراطية آية وبرهانا . ولكن هذه الخبرة كانت نتاجا ، ليس فقط لتطبيق المذهب الماركسي على الحركة العمالية ، انما ايضا للأوضاع التاريخية الخصوصية في اوروبا الغربية وهى غير قائمة في روسيا (سوف اتحدث اكثر عن هذه الأوضاع فيما بعد) وهو ما يعني ان صيغة الرد بالايجاب غير المشروطة في هذه الحالة غير صحيحة . لا يمكن لنا ان نؤكد مرة والى الابد ان الكهنة لا يمكن ان يكونوا اعضاء في الحزب الاشتراكي الديموقراطي، كما اننا لا نستطيع ان نرسي ايضا القاعدة العكسية . اذا ما اتانا كاهن ليشارك في عملنا السياسي العام على استعداد لأن ينجز بضمير حي الواجبات

الحزبية ، دون ان يعارض برنامج الحزب ، قد يسمح له بالانضمام لصفوف الاشتراكيين الديمقراطيين ، لأن التناقض بين روح ومبادئ برنامجنا والمعتقدات الدينية للكاهن ستكون في هذه الظروف امرا يعنيه وحده ، وهو تناقضه الخاص ، ولا يمكن لمنظمة حزبية ان تختبر اعضاءها لترى ما اذا لم يكن هناك تناقض بين نظراتهم وبرنامج الحزب . ولكن قد تكون مثل هذه الحالة استثناء نادرا حتى في اوروبا الغربية ، بينما في روسيا هي امر غير وارد تماما . واذا ما انضم كاهن على سبيل المثال للحزب الاشتراكي الديمقراطي وجعل عمله الرئيسي والوحيد تقريبا هو ان يدعوا بنشاط لوجهات نظر دينية في الحزب ، فلا بد من طرده من صفوفه بلا جدال . لا يتعين علينا ان نضم العمال الذين يحتفظون باعتقادهم في الله الى صفوف حزب العمال الاشتراكي فحسب وانما لابد ان نشرع عمدا في تجنيدهم ، ونحن نعارض بشكل مطلق ادنى اساءة لمعتقداتهم الدينية ، ولكننا نجندهم حتى نرببهم بروح برنامجنا ، وليس حتى نسمح بصراع نشط ضده . نحن نسمح بحرية الرأي داخل الحزب ، وانما لحد معين ، تحددها حرية تجمعنا ، ولسنا مضطرين لأن نساير الدعاة النشطين لوجهات نظر جددتها اغلبية الحزب .

مثال آخر . هل ينبغي ان ينتقد كل اعضاء الحزب الاشتراكي الديمقراطي على قدم المساواة وفي كل الظروف لإعلانهم أن "الاشتراكية هي ديني" ، ولترويجهم وجهات نظر تتسق مع هذا الاعلان ؟ لا ! الانحراف عن الماركسية (وبالتالي عن الاشتراكية) هنا لا جدال فيه ، ولكن دلالة الانحراف ، واهميته النسبية ، ان جاز القول ، قد تختلف حسب الظروف . هناك حالة المحرض او الشخص الذي يخاطب العمال بهذه الطريقة ، كمدخل لموضوعه ، حتى يصبح مفهوما بشكل افضل ، وحتى يعرض وجهات نظره بشكل اكثر حيوية وبمفاهيم اعتادت عليها الجماهير المتخلفة لحد بعيد . وهناك حالة اخرى تختلف حين يبدأ كاتب في التبشير ب "بناة الله" ، او اشتراكية بناة الله (بروح اخينا لوناتشارسكي وشركاه) . بينما يكون النقد في الحالة الاولى بمثابة ولع بالانتقاد بل حتى تقييد لحرية المحرض ، حرته في اختيار الطرائق "التربوية" ، فإن النقد الحزبي في الحالة الثانية ضروري

وجوهري. بالنسبة للبعض فإن عبارة "الاشتراكية هي ديني" هي شكل للانتقال من الدين للاشتراكية ، وللبعض الآخر ، هي شكل للانتقال من الاشتراكية للدين .

دعونا الآن نصل الى الأوضاع التي ولدت في الغرب التفسير الانتهازي لأطروحة : "الدين هو شأن خاص" . بالطبع ، الاثر المساهم في ذلك هي تلك العناصر العامة التي ولدت الانتهازية ككل ، مثل التضحية بمصالح حركة الطبقة العاملة الجوهريّة من اجل ميزات وقتية . يطالب حزب البروليتاريا بأن تعلن الدولة الدين شأنًا خاصًا ، ولكنه لا يعتبر الكفاح ضد افیون الشعب ، الكفاح ضد الخرافات الدينية ، الخ ، "شأنًا خاصًا" . يشوه الانتهازيون المسألة لتعني ان حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي يعتبر الدين شأنًا خاصًا !

ولكن اضافة الى التشويه الانتهازي المعتاد (الذي لم يوضح على الاطلاق في مناقشة مجموعتنا الحزبية في الدوما حينما وضعت خطابها حول الدين) ، هناك اوضاع تاريخية خاصة هي التي ولدت حتى اليوم اللامبالاة المفرطة ازاء الدين من جانب الاشتراكيين الديمقراطيين الاوروبيين ، اذا جاز لنا ان نعبر عن الامر على هذا النحو . وتتسم هذه الاوضاع بطبيعة مزدوجة . الأول ، ان مهمة مكافحة الدين تاريخيا هي مهمة البورجوازية الثورية ، وفي الغرب انجزت هذه المهمة لحد بعيد او عولجت من قبل الديمقراطية البورجوازية ، في عصر ثوراتها او هجماتها على الاقطاع والاضاع القروسطية . وفي كل من فرنسا ومانيا هناك تراث من الحرب البورجوازية ضد الدين ، وقد بدأ منذ وقت طويل قبل الاشتراكية (الموسوعيون في فرنسا ، وفويرباخ) . اما في روسيا ، وبسبب ظروف ثورتنا البورجوازية الديمقراطية ، فإن هذه المهمة تقع كلية تقريبا على عاتق الطبقة العاملة . ان الديمقراطية البورجوازية الصغيرة (النارودنيك) في بلادنا لم تفعل الكثير في هذا الصدد (كما يظن كاديت المائة السود الجدد ذوى الريش النابت ، او كاديت المائة السود من جريدة فيخي^(٥) ، وانما بالاحرى قليلا جدا ، بالمقارنة بما تم انجازه في اوروبا .

من ناحية اخرى ، ان تراث الحرب البورجوازية على الدين قد ادى في اوروبا لظهور تشويه بورجوازي نوعى لهذه الحرب من قبل الفوضوية (الاناركية) – التي كما اوضح الماركسيون طويلا مرارا وتكرارا تتخذ موقفها تأسيسا على النظرة البورجوازية للعالم ، بالرغم من كل "غضب" هجماتها على البورجوازية . ان الفوضويين والبلانكيين في البلدان اللاتينية ، اغلبهم (ممن كان مصادفة تلميذا لدوهرنج) وفصيلته في المانيا ، الفوضويون في النمسا في الثمانينات ، كلهم قاموا بتجارة الجمل الثورية في الصراع ضد الدين بما لا مزيد عليه . وليس من المدهش انه ، مقارنة مع الفوضويين ، فإن الاشتراكيين الديمقراطيين الاوروبيين يذهبون الى التطرف الآخر . وهذا مفهوم تماما ومشروع لحد معين ، ولكن سيكون من الخطأ بالنسبة لنا نحن الاشتراكيين الديمقراطيين ان ننسى الأوضاع التاريخية الخاصة بالغرب .

ثانيا ، فى الغرب ، بعد ان انتهت الثورات البورجوازية القومية ، وبعد ان تأسست حرية دينية كاملة بهذا القدر او ذاك ، دفعت قضية الصراع الديمقراطي ضد الدين ، تاريخيا ، لمدى بعيد للخلف بنضال البورجوازية الديمقراطية ضد الاشتراكية لأن الحكومات البورجوازية حاولت متعمدة ان تجذب انتباه الجماهير بعيدا عن الاشتراكية بتنظيم هجوم شبه – ليبرالي ضد الاكليريكية . لقد كانت هذه هي سمة الكفاح الثقافي في المانيا وصراع البورجوازيين الجمهوريين ضد الاكليريكية في فرنسا . ان مناهضة الاكليريكية البورجوازية ، كوسيلة لجذب انتباه جماهير الطبقة العاملة بعيدا عن الاشتراكية – هذا هو ما سبق انتشار روح "اللامبالاة" الحديثة ازاء الصراع ضد الدين في اوساط الاشتراكيين الديمقراطيين في الغرب . وهذا مرة اخرى مفهوم ومشروع تماما ، لأنه كان على الاشتراكيين الديمقراطيين ان يواجهوا مناهضة الاكليريكية البورجوازية والبسماركية باخضاع الصراع ضد الدين للصراع من اجل الاشتراكية .

الاضاع مختلفة تماما في روسيا . فالبروليتاريا هي قائد ثورتنا الديمقراطية البورجوازية . ويجب ان يكون حزبها هو القائد الايديولوجي في الصراع ضد كل سمات القرون الوسطى ، بما فيها الديانة القديمة الرسمية وكل محاولة لتجديدها او اعطاءها غلافا خارجيا جديدا او مختلفا ، الخ . وعلى ذلك ، بينما كان انجلز بالمقارنة معتدلا في تصويب انتهازية الاشتراكيين الديمقراطيين الالمان الذين كانوا يستبدلون ، مطلب حزب العمال بأن على الدولة ان تعلن الدين شأننا خاصا ، باعلان ان الدين شأن خاص بالنسبة للاشتراكيين الديمقراطيين انفسهم ، وللحزب الاشتراكي الديمقراطي ، فمن الواضح ان استيراد هذا التشويه الالمانى من قبل الانتهازيين الروس كان من المحتم ان ينال توبيخا اشد قسوة مائة مرة من انجلز .

باعلانها من منبر الدوما ان الدين هو افيون الشعب ، تصرفت مجموعتنا في الدوما بصواب تام ، وهكذا خلقت سابقة يجب ان تخدم كأساس لكل التصريحات اللاحقة التي تصدر عن الاشتراكيين الديمقراطيين حول مسألة الدين . هل كان عليهم ان يمضوا لأبعد ويطوروا جدالا الحاديا بتفصيل اكثر ؟ نحن لا نظن . ربما أدى هذا الى ان يقوم الحزب السياسي للبروليتاريا بمخاطرة المغالاة في النضال ضد الدين ، وربما كانت نتيجته محو الخط الفاصل المميز بين النضال البورجوازي والاشتراكي ضد الدين . ان الواجب الاول لمجموعتنا الاشتراكية الديمقراطية في دوما المائة السود قد انجز بشرف .

الواجب الثاني – وربما كان الأشد اهمية بالنسبة للاشتراكيين الديمقراطيين – اي ، ايضاح الدور الطبقي للكنيسة والكهنوت في تدعيم حكومة المائة السود والبورجوازية في حربها ضد الطبقة العاملة ، قد انجز بشرف ايضا . بالطبع ، هناك الكثير الكثير مما يمكن قوله في هذا الموضوع ، وسوف يعرف الاشتراكيون الديمقراطيون في تصريحاتهم اللاحقة كيف يوسعون خطاب الرفيق سيركوف ، ولكن في كل الاحوال كان خطابه ممتازا ، وتداوله من كل المنظمات الحزبية هو الواجب المباشر لحزبنا .

الواجب الثالث كان يقتضى ان يوضح بتفصيل تام المعنى الصحيح للأطروحة التي غالبا ما تشوه من قبل الانتهازيين الالمان ، وهى ان "الدين شأن خاص" . وهذا مالم يفعله لسوء الحظ الرفيق سيركوف . وهذا مما يؤسف له كثيرا لأنه في الفعاليات الاسبق لمجموعة الدوما فإن هناك غلطة ارتكبتها الرفيق بيلوسوف حول هذه المسألة ، وقد اشارت اليها في هذا الوقت جريدة بروليتاري . تظهر المناقشة في مجموعة الدوما ان الجدل حول الالحاد قد استبعد منه مسألة التفسير الدقيق للمطلب الشهير بأنه ينبغي اعلان الدين شأننا خاصا . لن نلوم الرفيق سيركوف وحده على هذا الخطأ الذى ارتكبه مجموعة الدوما بكاملها . وفوق ذلك ، سوف نعترف بصراحة ان الحزب بمجمله على خطأ هنا . لأنه لم يشرح هذه المسألة بما يكفي وانه لم يعد عقول الاشتراكيين الديموقراطيين بمايكفى لفهم ملاحظة انجلز التي وجهها ضد الانتهازيين الالمان . تبرهن مناقشة مجموعة الدوما على انه كان هناك فهم مشوش لهذه المسألة ، وليس على الاطلاق رغبة في تجاهل تعاليم ماركس ، واننا واثقون ان هذا الخطأ سوف يصوب فى التصريحات اللاحقة للمجموعة .

نحن نكرر ان خطاب الرفيق سيركوف اجمالا كان ممتازا ، ولا بد من توزيعه من قبل كل المنظمات . اظهرت مجموعة الدوما في مناقشتها لهذا الخطاب انها تنجز واجبها الاشتراكي بضمير حي . ويبقى التعبير عن الرغبة في ان تظهر التقارير حول المناقشات داخل مجموعة الدوما بشكل اكثر تواترا في الصحافة الحزبية حتى يزيد تقارب المجموعة مع الحزب ، ويتعرف الحزب على العمل الصعب الذى يقومون به داخل المجموعة ، ولتأسيس الوحدة الايديولوجية في عمل الحزب ومجموعة الدوما .

هوامش:

(١) انظر ك . ماركس ، اسهام في نقد فلسفة الحق عند هيجل . مقدمة . (ك) . ماركس و ف . انجلز ، حول الدين ، موسكو ، ١٩٥٧ ، ص ٤٢ .)

(٢) انظر ف . انجلز ، ادب المهاجرين - ٢ - برنامج البلانكيين .

(٣) انظر ف . انجلز ، ضد دوهرنج ، موسكو ١٩٥٩ ، ص ص ٤٣٤ - ٤٣٧ .

(٤) يشير هذا الى مقدمة انجلز لكراس ك . ماركس الحرب الاهلية في فرنسا (انظر ك . ماركس و ف . انجلز ، الاعمال المختارة ، المجلد الاول ، موسكو ، ١٩٥٨ ، ص ٤٧٩) .

(٥) فيخي (علامات) مجموعة مقالات كاديتية كتبها ن . برديايف ، س . بولجاكوف ، ب . ستروفه ، م . هيرشنسون وممثلين آخرين للبورجوازية الليبرالية المناهضة للثورة ، طبعت في موسكو في ١٩٠٠ . حاول هؤلاء الكتاب في مقالاتهم حول الانتليجنسيا الروسية ان يشوهوا التقاليد الثورية الديمقراطية لأفضل ممثلي الشعب الروسي بمن فيهم بيلينسكي وتشيرنيسفسكي ، وقد شوهوا الحركة الثورية لعام ١٩٠٥ وشكروا الحكومة القيصرية لانها "برماحها وسجونها" قد انقذت البورجوازية الروسية من "الغضب الشعبي" ودعا هؤلاء الكتاب الانتليجنسيا الروسية لخدمة الاوتوقراطية . قارن لينين برنامج وآراء فيخي من زاوية الفلسفة والصحافة بما تضمنته صحيفة المائة السود "موسكوفسكيه فيدوموستي" ، واصفا تلك الآراء بأنها "موسوعة من الارتداد الليبرالي" ، لا شئ سوى فيضان من الطين الرجعي صب على الديمقراطية" .

المصدر : لينين ، الاعمال الكاملة ، المجلد ١٥ ، ص ص

٤٠٢ - ٤١٣ ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٧٣ . الطبعة

الانجليزية - ارشيف لينين على الانترنت .